تجديد المعالجة المنهجية في البحوث التربوية المقارنة

إعداد

أ. د/ شاكر محمد فتحي أحمد [1]

البحوث التربوية المقارنة هي بحوث علم التربية المقارنة.

ولكن أي علم تربوي مقارن هو المقصود؟ وهل هناك أكثر من علم تربوي مقارن؟

أو بالأحرى هل هناك مراحل تطورية لعلم التربية المقارنة؟

أولًا ـ تطور علم التربية المقارنة:

يشير أنتونيو نوفوا Antonio Novoa في مقالته Comparative Research in Education إلى أن علم التربية المقارنة مر بأربع مراحل تطورية، تتمثل فيما يلي:

1- **معرفة الآخر Knowing The Other**: في نهايات القرن التاسع عشر برز اتجاه التوسع في التعليم Mass Schooling، وصاحبه حاجة كل دولة للتعرف على النظم التعليمية في الدول الأخرى؛ الأمر الذي ترتب عليه ظهور علم التربية المقارنة المتمحور حول مساعدة المصلحين الاجتماعيين من أجل بناء نظمهم القومية للتعليم.

2- **فهم الآخر Understanding The Other:** رسخت الحرب العالمية الأولى ضرورة التعاون الدولي؛ بغية فهم الآخر، سواء كان هذا الآخر قوة منافسة أو دولًا أخرى؛ وذلك من أجل بناء عالم جديد New World، وإنسان جديد New Man، والذي يتطلب بناء كل منهما تجديد أو تحديث التعليم، ومن ثم ركز علم التربية المقارنة على مقارنة السياسات التعليمية.

(1) أستاذ التربية المقارنة والإدارة التعليمية، كلية التربية ـ جامعة عين شمس.

3- **بناء الآخر Constructing The Other:** شهد النصف الثاني من القرن العشرين تجديدًا في المعالجات المنهجية في التربية المقارنة، واستحداث مداخل منهجية متأثرة بالمداخل البحثية في العلوم الأخرى. ونظر علم التربية المقارنة إلى التعليم باعتباره مصدرًا رئيسيًّا لتحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي؛ ومن ثم فبناء الآخر، وبناء النظم التربوية، وتطوير سياساتها هو السبيل إلى هذا التقدم. وأضحى البحث التربوي المقارن مستهدِفًا التوصل إلى حلول للمشكلات التربوية على مستوى الدول ومستوى التكتلات الإقليمية.

4- **قياس الآخر Measuring The Other:** مع بداية الألفية الثالثة وبزوغ ضرورة تأسيس النظم التعليمية على تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الفائقة؛ أصبح الشغل الشاغل لباحثي التربية المقارنة من خلال علم التربية المقارنة الجديد البحث عن مؤشر لقياس مدى جودة النظم التربوية وفاعليتها.

ثانيًا ـ المتغيرات العالمية والتربية المقارنة في الألفية الثالثة:

يقودنا ما سبق إلى القول: إن التربية المقارنة في الألفية الثالثة تنعت بالتربية المقارنة والراديكالية A Radical, Neo- Comparative Education أو تربيات مقارنة ومتعددة Multi Comparative Education، والواضح أن التربية المقارنة والجديدة (التربية المقارنة في الألفية الثالثة) تتميز بعدة خصائص، من أبرزها: القراءة النقدية للسياق العالمي والسياقات الثقافية المتعددة، والفهم العلمي الصحيح للتحولات والتغيرات العالمية، والإدراك الصحيح لانعكاسات هذه التحولات والتغيرات (الآنية والمستقبلية) على التعليم والتعلم والآخر، وكذلك فهم دلالة تنامي الاهتمام بالنظم التعليمية القومية.

ولا شك أن التربية المقارنة الجديدة نتجت عن عدة متغيرات عالمية ذات تداعيات، وقد شكلت هذه المتغيرات والتداعيات نظرة جديدة للتربية المقارنة في الألفية الثالثة.

1- المتغيرات العالمية:

لا جدال في أن بدايات الألفية الثالثة شهدت عدة متغيرات متسارعة ذات تأثير عالمي. الأمر الذي انعكس بالتبعية على النظم المجتمعية العامة والنظم التعليمية خاصة في العالم أجمع، بغض النظر عن الخصوصية البيئية والثقافية للمجتمع أو التعليم.

وبصفة عامة يمكن إيجاز أبرز هذه المتغيرات العالمية فيما يلي:

أ- **التسارع المعلوماتي والتكنولوجي**؛ ومن ثم التعامل مع مفهومي الزمان والمكان بصورة غير تقليدية. الأمر الذي أفضى إلى تجاوز الحدود بين الدول.

ب- **عولمة الاقتصاد وزيادة درجة تنافسيته**؛ وما يترتب عليه من زيادة عدد الكيانات الاقتصادية عبر القومية، وعبر القارية، ومن ثم رفض فكرة أن المجتمعات بمثابة تشكيلات مجتمعية منعزلة.

ج- **بلورة اتجاه المجتمعات الموجهة معرفيًّا**، والهادفة إلى توظيف مفهومي التنافسية والإنتاجية في جميع أنشطتها.

د- **تعزيز التغيير التنظيمي للمؤسسات** الهادفة إلى تحقيق جودة الإنجاز وسرعته وتميزه.

هـ- **تعاظم الاعتماد المتبادل بين المجتمعات** في مقابل تضاؤل الدولة القومية؛ نظرًا لاندماج الدولة القومية في النظام الاقتصادي العالمي بدرجات متفاوتة.

و- **بلورة الدور الرئيسي للدولة القومية** Nation-State في اتخاذ سياسات تزيد من قدرتها التنافسية: محليًّا وإقليميًّا وعالميًّا، وتتيح حرية الإبداع لمواردها البشرية.

ز- **إيلاء الاهتمام لمعالجة المشكلات** الناتجة عن تزايد عولمة المجتمعات، وتدويل العلوم الاجتماعية.

ح- **تعاظم دور المنظمات الدولية، مثل:** اليونسكو، ومجلس التعاون والتنمية في المجال الاقتصادي، ومنظمة التجارة العالمية) في التأثير على التعليم وسياساته؛ نظرًا لتأكيدها على مفاهيم من شأنها التكيف مع البيئة العالمية، مثل: التنافسية، والإنتاجية، والقابلية للتدريب Trainability، والإتاحة Accessibility.

2- تداعيات المتغيرات العالمية:

لقد أدت المتغيرات العالمية سالفة الذكر إلى عدة تداعيات، من أبرزها ما يلي:

أ- **تحول مجتمع الألفية الثالثة إلى مجتمع تعلم** Learning Society، واعتماد نظم التعليم فيه على مفهوم التعلم مدى الحياة للجميع Life Long Learning for All.

ب- **إحداث تغييرات جذرية في النظم التعليمية؛** من أجل التوافق مع الاحتياجات الآنية والمستقبلية لإنسان الألفية الثالثة، وكذلك الاستجابة لمتطلبات التنافسية العالمية.

ج- **اعتبار المقارنة الدولية لنظم التعليم بمثابة القياس المقارن لصنع القرارات التعليمية على مستوى الدولة القومية؛** حيث يفيد ذلك في بزوغ القدرة الإصلاحية من داخل نظم التعليم القومية، وبزوغ مقومات الدولة الفعالة.

د- انتقال مركز الثقل والاهتمام من نظم التعليم القومية إلى نظم التعليم العالمية، وعلو شأن النظم العالمية.

هـ- اعتبار تطوير سياسات التعليم قائمًا على الجمع بين الانتماء القومي والانفتاح العالمي لمخرجات التعليم، كاستجابة طبيعية لمتغيرات الألفية الثالثة، سواء المعرفية أو التكنولوجية أو الاقتصادية.

و- تأسيس تربية المواطنة على الجمع بين البعد القومي، والبعد العالمي.

ز- إن ما أفرزته بدايات الألفية الثالثة من متغيرات عالمية وتداعياتها على مستوى النظم المجتمعية، وكذلك النظم التعليمية يلفت الانتباه إلى ضرورة إعادة النظر في موروثات التربية المقارنة (البازغة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين) وكذلك تحري وفحص مبررات التجديد المنهجي في البحوث التربوية المقارنة الراديكالية.

ثالثًا ـ مبررات التجديد المنهجي في البحوث التربوية المقارنة:

حقيقة الأمر أن هناك مبررات استوجبت وتستوجب دوما التجديد المنهجي في البحوث التربوية المقارنة، ومنها ما يلي:

1- إن التربية المقارنة الراديكالية وفقًا لرأي باتريشيا برودفوت Patricia Broadfoot تتطلب مداخل متعددة التخصصات، تسهم فيها علوم أخرى، مثل: الاجتماع، والسياسة، والاقتصاد، والجغرافيا، والتاريخ، والأنثروبولوجي.

2- إن الطبيعة المغايرة لنظم التعليم لما بعد الحداثة، وتجاوز مفهوم الدولة القومية وأدوارها التقليدية ـ نتيجة لتأثيرات العولمة والتنافسية الاقتصادية ـ إلى التأكيد على التكتلات والكيانات الإقليمية، أدت إلى الاهتمام بمستويات للتحليل في التربية المقارنة أكثر تحديًا وفعاليةً في فهم ومعالجة نظم التعليم بعد الحداثة.

3- اعتبار التعليم في القرن الحادي والعشرين مشروعًا قوميًّا مجتمعيًّا يؤسس على منظور دولي عالمي، والبحوث التربوية المقارنة هي المسئولة عن تأصيل هذا المنظور وتدعيمه من خلال ما يصل إليه من تعميمات Generalized Concepts، ومؤشرات Indicators.

4- اعتبار الجودة والفاعلية والمحاسبية معايير حاكمة لنجاح المنظومة التعليمية.

5- التنافسية العالمية، وما استوجبت من البحث عن أفضل الممارسات في الأداء العالمي والاسترشاد بها من أجل وضع مؤشرات لتقييم الأداء على المستوى القومي.

6- ضرورة النظر إلى دينامية الظاهرة التربوية المقارنة مكانًا وزمانًا، بهدف استشراف مستقبلها والتنبؤ بما يواجهها.

استقراء وتحليل ما سبق يقود إلى مقولة مفادها: إن التجديد المنهجي في البحوث التربوية المقارنة حتمية علمية

رابعًا ـ كيفية التجديد المنهجي:

تعتبر التربية المقارنة الراديكالية أو التربية المقارنة الجديدة في الألفية الثالثة علمًا عبر تخصصي Trans – Discipliny؛ نظرًا لتنوع أهدافها، ومجالات اهتمامها، ووفقًا لرأي كاون Cown. التركيز على مقارنة المستقبليات Comparing Futures بجانب مقارنة الماضي Comparing Posts.

الأمر الذي يفرض أو يستوجب الإفادة من التنوع الثري للمنهجيات المتاحة لما بعد الحداثة (كمية أو نوعية) في معالجة موضوعات التربية المقارنة، وإجراء البحوث التربوية المقارنة، شريطة أن تعتمد المعالجات المنهجية للبحوث التربوية المقارنة في الألفية الثالثة على المداخل ذات القيمة الاستشرافية أو التنبؤية.

وعليه فإن إحداث التجديد المنهجي في البحوث التربوية المقارنة يتأتى من خلال أربعة بدائل، وهي:

1- المداخل أو المنهجية المعاصرة (منهجيات الألفية الثالثة)، مثل:

- مدخل التحولات Transitolgies Approach.
- مدخل النظام العالمي World-System Approach.
- مدخل التعليمية Learnologies Approach.

- الأسلوب المورفولجي Morphological Method.
- أساليب بحوث الأداء Action-Research Method.

2- توظيف أساليب الدراسات المستقبلية في المعالجة المنهجية للظواهر التربوية المقارنة، مثل:

- أسلوب تحليل النظم.
- أسلوب السيناريو.

3- الإفادة من بعض المداخل المنهجية السائدة في النصف الثاني من القرن العشرين، مثل:

- مدخل جورج بريداي.
- مدخل براين هولمز.
- مدخل نواه وإكستاين.
- المدخل الوظيفي لالتباخ.

4- النحت المنهجي:

بمعنى ابتكار أو استحداث مدخل له قيمة استشرافية أو تنبؤية، على غرار المداخل المنهجية المذكورة في البديل الأول. وقد ينفرد بوضع هذا المدخل أو البراديم أستاذ متخصص أو فريق متخصص.

قاعدة ذهبية مؤداها:

إن الفهم العلمي الصحيح للأسس النظرية لأي بديل من البدائل الأربعة، وكذلك فنيات التطبيق الخاصة به؛ أمر سابق لتبني البديل، ثم يأتي الاجتهاد المنهجي في المعالجة بما يحقق الاستشراف المستقبلي للظاهرة التربوية المقارنة.

***

وأيًّا كان البديل المستهدف لإحداث التجديد المنهجي أو إحداث ثورة منهجية في البحوث التربوية المقارنة؛ فهناك سؤال يطرح نفسه، وهو:

من الذي يناط به البدء بالتجديد المنهجي أو إحداثه؟ أفراد أم هيئات؟ ولماذا؟